وكما حدث في بداية اندلاع الانتفاضة، فان حادث واحد يسقط فيه بضعة شهداء فلسطينيين، كاف لكي تشتعل المدن والقرى الفلسطينية كافة بأعمال الاحتجاج المتنوّعة، ولمدة أيام عدة. «وتمثل حادثة القتل في ريشون لتسيون الخطر على أمن اسرائيل، الكامن في استمرار الانتفاضة. وعلى افتراض ان الفلسطينيين في المناطق [المحتلة] تعبوا، فان المنطقة لا تزال تتصف بالحساسية، ويكمن فيها الكثير من المواد المتفجّرة، المعنوية والسياسية، خصوصاً الآن، حيث ان المفاوضات السياسية متعثّرة، ويخشى الفلسطينيون كثيراً من تشكيل حكومة ضيّقة القاعدة البرلمانية، في اسرائيل» (رون بن ـ يشاي، **يديعوت أحرونوت**، ٢١/٥/١٩٩٠).

وثمّة خطورة كبيرة كامنة في حدوث احتكاكات بين اليهود والعرب على نطاق واسع، الامر الذي يحذّر الاسرائيليون من تكرار حدوثه، وعلى امتداد فترة زمنية طويلة، «لأنه اذا ما أُعطيت الصدامات، بين الجيش الاسرائيلي والسكان، سواء من قبل الفلسطينيين، أم من قبل الرأي العام العالمي، نوعاً من الشرعية، فان اعتداء مواطنين يهود على العرب هو بمثابة صاعق تفجير، قادر على اشعال حريق واسع، ليس داخل المناطق [المحتلة] فحسب، وانما داخل الدول العربية أيضاً؛ وان اعتداء، بشكل واسع، يقوم به اليهود على العرب، يحتمل ان يؤدي الى ما يسمّى، حسب الخبراء، 'الانفجار الكبير'. ويمكن للانفجار الكبير هذا ان يؤدي، في نهاية الأمر، الى حرب أيضاً» (**المصدر نفسه**).

واذا كان الأمر كذلك، فهل كانت مذبحة ريشون لتسيون من فعل «معتوه» مصاب بلوثة في عقله، أم كانت نتيجة طبيعية لنموّ التطرف والكراهية وسط المجتمع الاسرائيلي؟ وتجاوزاً لكل منطق معقول، واذا ما اعتبرنا ان الحادث ارتكبه «مجنون»، فهل ينبت الجنون في فراغ، أم انه يستند الى ركائز وأسس يترعرع من خلالها؟ هذا، بالذات، ما اشار اليه، صراحة، بعض آراء الاسرائيليين. وللبرهان على وجود المناخ الملائم لمثل هذا العمل في المجتمع الاسرائيلي، ذكر الصحفي عمنوئيل روزين انه، قبل أيام عدة، تقدّم بعض السكان اليهود من مستوطنة معاليه أدوميم الى بعض الجنود، واقترحوا عليهم ان يتخلوا لهم عن بنادقهم لمدة خمس دقائق فقط، «وسوف نظهر لكم ماذا يمكن ان نفعل بهم [أي بالعرب]»، حسب ما تفوّه به المستوطنون للجنود. وما جرى في ريشون لتسيون هو ان احداً ما «حوّل هذا الاقتراح الى أمر محقق. وليس صدفة ان الجنون توجّه، هذه المرة، الى 'سوق العمّال' في ريشون لتسيون... ولا يمكن لزعماء الانتفاضة في المناطق [المحتلة] ان يتوقعوا 'هدية' جيدة أكثر. فهم يلاحظون ان الانتفاضة اختفت من العناوين البارزة، وبدأت وسائل الاعلام تقلّل من اهتمامها بالموضوع. وقد تعلم الجيش [الاسرائيلي] التكيّف مع الأمر، بشكل أو بآخر... [وان] الشعور بالجمود السياسي... والخشية من حكومة يمينية ضيقة القاعدة، كان يحتاج الى عود ثقاب يلهب الوضع من جديد. وقد تمّ اشعال عود الثقاب من الجهة التي لم تكن متوقعة» (**معاريف**، ٢١/٥/١٩٩٠).

وفي السياق ذاته، كانت صحيفة «هآرتس» الاسرائيلية أكثر شجاعة ووضوحاً في رفض فكرة وصف القاتل بأنه معتوه، وكتبت، في افتتاحيتها، بتاريخ ٢١/٥/١٩٩٠، انه «يجب ان نسمّي الأشياء بأسمائها. فالحادث الذي ذهب ضحيته بعض العرب هو جريمة قتل، والقاتل... اختار الضحايا، والتوقيت، والمكان، والوسائل. وقطعاً، فان التعابير المستخدمة في الطب النفسي كثيرة، وغنية، بما يكفي، لكي نلصق بهذا العمل اسماً يونانياً أو لاتينياً أيّاً كان؛ لكن، حسب المفاهيم الانسانية، فان الشخص القادر على اختيار ضحاياه، واختيار الظروف الأفضل للقتل، ليس معتوهاً». وأضافت الافتتاحية، «ان الظروف التي أوجدت الانتفاضة تشكل، على ما يبدو، الخلفية التي تقف وراء حادث القتل. فقد تروّض الجمهور الاسرائيلي والفلسطيني معاً على التسليم بحدوث الحماقات، خصوصاً عندما تكون ضحاياها من الطرف الآخر. وللأسف والمرارة الشديدين، فان الزعامات السياسية لم تفعل ما ينبغي لاشاعة ثقافة جماهيرية من أجل احترام المثل الانسانية. وفي ضوء ما يجرى، ثمة سؤال: ماذا يجب ان يحدث أيضاً؟ وأي نوع من الحماقات سوف نشهدها، للوصول الى رأي عام مفاده انه، في مثل هذه الظروف، فان وجود دولة ثنائية القومية، من نوع أرض ـ اسرائيل الكاملة، لا تساوي الثمن المدفوع من اجلها؟».